جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تكريت

قسم اللغة العربية

المؤسسة التربوية الأولى

(أدوار الأسرة والقبيلة والمرأة)

م.د نصار مالك احمد

للعام الدراسي

(2026-2025)

المؤسسة التربوية الأولى

(أدوار الأسرة والقبيلة والمرأة)

م.د نصار مالك احمد

الماحضرة رقم (5)

قبل أن تظهر المدارس النظامية، وقبل أن تُعرف المناهج المكتوبة أو المؤسسات التعليمية المنظمة، كانت هناك مؤسسة تربوية قائمة بالفعل تؤدي وظائفها بكفاءة عالية، هي مؤسسة الأسرة الممتدة داخل الإطار القبلي. لقد كانت الأسرة هي "الجامعة الأولى"، وكانت القبيلة هي الإطار الأوسع الذي يحتضن عملية التنشئة ويوجهها. أما الحياة اليومية بما تحمله من عمل وصراع وتعاون، فكانت المختبر الحقيقي الذي تتشكل فيه شخصية الفرد.

في المجتمعات القديمة، لم تكن التربية نشاطاً منفصلاً عن الحياة، بل كانت الحياة نفسها هي التربية. فالطفل يتعلم من خلال الممارسة، ومن خلال تقليد الكبار، ومن خلال مشاركته التدريجية في مسؤوليات الجماعة. ولم تكن الأدوار التربوية موزعة عشوائياً، بل كان لكل من الأم، والأب، والقبيلة وظيفة واضحة في إعداد الأجيال، بما يضمن بقاء المجتمع واستمراره.

ومن هنا يمكن القول إن المؤسسة التربوية الأولى قامت على ثلاثة أعمدة رئيسة: الأسرة بوصفها الإطار الحميمي الأول، والمرأة بوصفها المربية الأولى، والقبيلة بوصفها السلطة المنظمة والحامية للقيم والتقاليد.

أولاً: الدور المحوري للمرأة (الأم كمربية أولى)

1. التنشئة الأولى وبناء الأساس النفسي

في المجتمعات القديمة، كانت الأم هي المصدر الأول للحياة، ليس فقط بيولوجياً، بل نفسياً واجتماعياً. فالطفل يقضي سنواته الأولى في كنف أمه، وهي المرحلة الأكثر حساسية في تكوين شخصيته. خلال هذه السنوات تتشكل اللغة البدائية، وأنماط السلوك، ومشاعر الانتماء والأمان.

كانت الأم تعلم طفلها الكلمات الأولى التي تصف العالم من حوله، فتمنحه مفاتيح التواصل مع الجماعة. كما كانت تغرس فيه العادات الأساسية: كيفية الأكل، الجلوس، احترام الأكبر سناً، والخوف من المحظورات التي تحمي الجماعة. ومن خلال الحكايات البسيطة والإشارات الرمزية، كانت تنقل إليه القيم والمعتقدات.

إن الدور النفسي للأم في تلك المجتمعات لا يمكن التقليل من أهميته؛ فهي مصدر الطمأنينة في عالم مليء بالمخاطر. ومن خلال علاقتها بالطفل، يتكون لديه الشعور الأول بالأمان، وهو أساس كل نمو اجتماعي لاحق.

2. التعليم المهني للإناث

لم يكن دور الأم مقتصراً على الرعاية العاطفية، بل امتد إلى إعداد الفتيات لتحمل مسؤولياتهن المستقبلية. فقد كانت الأم هي المعلمة الأولى لابنتها، تنقل إليها المهارات التي تحتاجها في حياتها اليومية.

ومن بين هذه المهارات:

أ. إعداد الطعام البدائي باستخدام الوسائل المتاحة

ب. معالجة الجلود وحياكتها لصناعة الملابس البسيطة

ج. رعاية الأطفال الصغار وحمايتهم

د. التمييز بين النباتات الصالحة للأكل والنباتات السامة

كان هذا التعليم يتم تدريجياً، من خلال الملاحظة والمشاركة، حتى تصبح الفتاة قادرة على أداء دورها داخل الأسرة الجديدة التي ستنتمي إليها بعد الزواج. وهكذا كانت التربية النسوية تضمن استمرارية المعرفة المنزلية والحياتية عبر الأجيال.

3. المرأة كحافظة للتراث الشفهي

في كثير من المجتمعات القديمة، لعبت المرأة دوراً مهماً في نقل القصص والأساطير والأمثال الشعبية. كانت الجلسات المسائية حول النار فرصة لسرد الحكايات التي تحمل دروساً أخلاقية واجتماعية. وبهذا أصبحت المرأة حافظة للذاكرة الجمعية، تنقل الخبرة التاريخية من جيل إلى آخر.

ثانياً: دور الأب والقبيلة في تربية الذكور

1. الانتقال إلى "مدرسة الرجال"

عندما يبلغ الطفل الذكر مرحلة معينة من النضج الجسدي، يبدأ انتقاله التدريجي من عالم الأم إلى عالم الرجال. وهنا تبدأ مرحلة جديدة من التربية تتسم بالصرامة والانضباط.

يرافق الابن والده في رحلات الصيد أو الرعي أو الدفاع، ويتعلم منه مهارات القوة والصبر والتحمل. ولم يكن التعلم نظرياً، بل كان قائماً على الممارسة الفعلية، حيث يختبر الشاب قدراته في مواقف حقيقية.

2. المصاحبة والتقليد كنمط تعليمي

كان التقليد الوسيلة الأساسية للتعلم. فالابن يقلد والده في طريقة حمل السلاح، وفي أسلوب التتبع، وفي كيفية اتخاذ القرار. ومن خلال المصاحبة اليومية، يتشرب قيم الرجولة كما يراها المجتمع: الشجاعة، الصبر، الكتمان، الدفاع عن الجماعة.

وقد كانت بعض المجتمعات تقيم طقوس عبور عند بلوغ الفتى سن الرشد، ليُعلن انتقاله الرسمي إلى صفوف الرجال. وكانت هذه الطقوس ذات بعد تربوي عميق، إذ تعزز الشعور بالمسؤولية والانتماء.

3. سلطة رئيس القبيلة والكيان الجمعي

لم تكن الأسرة وحدها المسؤولة عن التربية، بل كانت القبيلة بكيانها الجمعي تمارس سلطة تربوية عليا. فقد كان لرئيس القبيلة أو مجلس الشيوخ دور في تلقين الشباب تاريخ القبيلة، وأمجادها، وحروبها، وقوانينها الصارمة.

كان الشباب يتعلمون:

أ. احترام الأعراف والتقاليد

ب. الالتزام بقوانين الثأر أو الحماية

ج. الطاعة للقيادة في أوقات السلم والحرب

وكانت مخالفة هذه القوانين تُعد جريمة كبرى قد تؤدي إلى النبذ أو الطرد من القبيلة، وهو عقاب يعادل الموت، لأن الفرد خارج القبيلة يفقد الحماية والهوية معاً.

ثالثاً: التربية كعملية تكيف وانسجام اجتماعي

1. تحقيق التوافق الاجتماعي

الهدف الأسمى للمؤسسة التربوية الأولى لم يكن تنمية الفرد بمعزل عن الجماعة، بل تحقيق التوافق بينه وبين مجتمعه. كان المطلوب أن يشعر الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من الكيان الجمعي، وأن مصالحه الخاصة لا تنفصل عن مصلحة القبيلة.

ومن خلال التربية اليومية، يتعلم الفرد قيم التعاون، والتضحية، وتقاسم الموارد، ومساندة الآخرين في الأزمات. وهكذا يتحقق الانسجام الاجتماعي الذي يضمن بقاء الجماعة.

2. الانضباط الجمعي وأهمية الطاعة

في المجتمعات القديمة، كانت الطاعة للتقاليد الموروثة أساساً للاستقرار. فالأعراف لم تكن مجرد عادات، بل قوانين غير مكتوبة تنظم الحياة. وكان الانحراف عنها يهدد وحدة الجماعة.

لذلك ركزت التربية على غرس روح الانضباط، وتعليم الأطفال احترام الكبار، وتنفيذ الأوامر دون جدال في المواقف الخطرة. وهذا لا يعني غياب التفكير، بل يعكس طبيعة المجتمع الذي يتطلب استجابة سريعة للأخطار.

3. التكيف مع البيئة الطبيعية والاجتماعية

كانت التربية وسيلة لتمكين الفرد من التكيف مع بيئته. فالعيش في الصحراء يفرض مهارات تختلف عن العيش في الغابات أو الجبال. ومن هنا كانت الخبرات التربوية تتشكل وفق طبيعة المكان والموارد المتاحة.

كما أن التكيف الاجتماعي كان ضرورياً، إذ يتعلم الفرد كيفية التعامل مع النزاعات الداخلية، ومع الضيوف أو القبائل المجاورة، ومع التحالفات أو الصراعات.

رابعاً: تكامل أدوار الأسرة والقبيلة

لا يمكن فهم المؤسسة التربوية الأولى إلا بوصفها منظومة متكاملة. فالأم تبني الأساس النفسي واللغوي، والأب يصقل المهارات العملية، والقبيلة تضبط الإطار القيمي والقانوني. وكل عنصر يكمل الآخر في عملية متصلة لا تنفصل عن الحياة اليومية.

لقد شكل هذا التكامل شبكة أمان اجتماعية تحمي الفرد من الضياع، وتمنحه هوية واضحة. فالانتماء إلى الأسرة يمنحه الحماية العاطفية، والانتماء إلى القبيلة يمنحه الحماية المادية والرمزية.

خامسا: دلالات تربوية معاصرة

إن دراسة المؤسسة التربوية الأولى تكشف لنا أن كثيراً من المبادئ التربوية الحديثة لها جذور عميقة في التاريخ الإنساني، مثل:

أ. أهمية الأسرة في السنوات الأولى من حياة الطفل

ب. التعلم بالممارسة والمصاحبة

دور الجماعة في تشكيل الهوية والقيم.ج

ضرورة التوازن بين الحرية الفردية والانضباط الاجتماعي.د

ورغم اختلاف السياقات الزمنية، فإن الحاجة إلى الانتماء، وإلى نقل الخبرة عبر الأجيال، ما تزال ثابتة في كل المجتمعات.

خاتمة

إن الأسرة والقبيلة في العصور القديمة لم تكونا مجرد إطارين اجتماعيين، بل كانتا المؤسسة التربوية الأولى التي أعدت الإنسان للحياة. وقد توزعت الأدوار بين المرأة والأب والقبيلة في نظام متكامل يهدف إلى بناء فرد قادر على التكيف، منضبط في سلوكه، منتمٍ إلى جماعته.

لقد كانت التربية آنذاك عملية حياتية شاملة، تبدأ من حضن الأم، وتستمر في مدرسة الرجال، وتتكرس في ظل سلطة القبيلة. ومن خلال هذا البناء المتكامل، استطاعت المجتمعات القديمة أن تحافظ على وجودها، وتنقل قيمها وخبراتها من جيل إلى آخر، واضعةً الأساس الذي ستتطور منه لاحقاً المؤسسات التعليمية المنظمة في الحضارات اللاحقة.